مجلة كلية الآداب

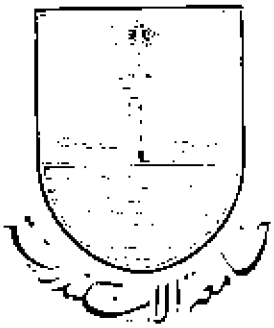

عدد تذكاري خاص

مهدى إلى المرحوم

الأستاذ عبد الحميد العبادى

المجلد الرابع عشر

١٩٦٠

تطلب هذه المجلة من مكتب كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبى ، ووجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى
الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

مطبعة جامعة الإسكندرية

١٩٦٠

فهرس القسم العربى

صفحة

١ ـ أبو العلا عفيفى

شارح مجهول من شراح الرسالة القشيرية ١

٢ ـ جمال الدين الشيال

تكوين الشعب المصرى الجديد بعد الفتح العربى ١٩

٣ ـ حسين مؤنس

صورة الأندلس ٣٣

٤ ـ عبد الهادى التازى

الحروف المتوشحة بجامع القرويين ٦١

٥ ـ توفيق الطويل

مدخل لدراسة تاريخ الفلسفة ٧٩

٦ ـ محمد فريد أبو حديد

قصة عشر سنوات فى مزارعى بافريقية ١١٩

٧ ـ حسن عثمان

افريقيا فى مظهر دانتى ١٣٩

٨ محمد خلف الله أحمد

شخصية الأمة العربية : قوامها وعناصرها ١٦١

٩ ـ السيد أحمد خليل

التصور اللغوى عند العرب ١٧٥

١٠ـ سامى شنوده

الثيوقراطية بدير القديسة كاترين بشبه جزيرة سيناء ١٩١

١١ـ هانز روبرت ترجمة لطفى عبد الوهاب يحيى

وثائق التاريخ المصرى فى العصر الإسلامى ٢٠١

تحية إجلال ووفاء

أربعون سنة قضاها المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى يعلم التاريخ فى معاهد وجامعات مصر والدول العربية .

وعشر سنوات قضاها — رحمه الله — عميدا لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية وأستاذا للتاريخ الإسلامى بها .

وعلى يديه تخرج ألوف من الطلاب أخذوا عنه منهجه ، وتأثروا بأخلاقه النبيلة ، ونفسه المطمئنة ، وروحه العالية .

وقد كنت وجهت الدعوة بعيد وفاته إلى نفر من أصدقائه وتلاميذه أن يكتب كل منهم بحثا فى موضوع تاريخى أو أدبى يتصل بالدراسات التى كان يعنى بها الأستاذ — رحمه الله — وقد استجاب لهذه الدعوة بعض هؤلاء الأصدقاء والتلاميذ ، وتفضلوا مشكورين بارسال هذه النخبة الممتازة من البحوث الطيبة فتقدمت بها إلى الأستاذ خلف الله أحمد — وهو واحد من تلاميذه وأصدقائه كما أنه خلفه فى عمادة كلية الآداب — واستأذنته أن تخرج هذه البحوث فى عدد خاص من أعداد مجلة كلية الآداب تهديه إلى روح الأستاذ العبادى تحية إجلال ووفاء ، فوافق مرحبا وأذن لى . وهاهوذا العدد التذكارى نقدمه اليوم إلى روح أستاذنا الجليل عبد الحميد العبادى تخليدا وإحياءً لذكراه ، وعرفانا بما كان له من فضل على الدراسات العربية والتاريخية وعلينا جميعاً نحن أصدقاءه وتلاميذه .

جمال الدين الشيال
سكرتير تحرير المجلة

فبراير ١٩٦٠

المرحوم

الأستاذ عبد الحميد العبادى

عميد كلية الآداب سابقا

الأستاذ عبد الحميد العبادى

فى كلمات

مولده ودراسته :

- ولد فى الاسكندرية فى سنة ١٨٩٢ م
- أتم علومه الابتدائية والثانوية فى مدارس الاسكندرية
- تخرج فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٤
- حصل على ليسانس الحقوق

الوظائف :

- بدأ حياته التعليمية مدرسا فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية
- عين أستاذا للتاريخ فى مدرسة القضاء الشرعى
- عند افتتاح الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٥ اختير أستاذا لتاريخ الإسلام بكلية الآداب
- عند إنشاء جامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٤٢ نقل إليها عميدا لكلية الآداب وأستاذا لتاريخ الإسلامى بها .
- ظل يشغل المنصب الأخير عشر سنوات إلى أن أحيل للمعاش فى سنة ١٩٥٢
- أثناء شغله لكرسى التاريخ الإسلامى بجامعتى القاهرة والإسكندرية ندب لتدريس هذه المادة فى كثير من الجامعات والمعاهد العلمية فى مصر وخارجها ، منها :
- الجامعة الأزهرية
- كلية دار العلوم
- كلية الآداب بجامعة عين شمس
- دار المعلمين العالية ببغداد
- بعد إحالته إلى المعاش عين أستاذا للتاريخ فى معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية ، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن اختاره الله إلى جواره

الهيئات العلمية :

- عضو مؤسس بلجنة التأليف والترجمة والنشر
- عضو مؤسس بمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

- عضو بالمجمع المصرى للغة العربية
- عضو مراسل بالمجمع العلمى العربى بدمشق
- مثل مصر والجامعات المصرية فى عدد كبير من المؤتمرات الدولية ، وخاصة مؤتمرات المستشرقين والمؤتمرات التاريخية ومؤتمر الفردوسى ... ... الخ .

مؤلفاته وجهوده العلمية :

١ – المسألة المصرية فرودختين ، ترجمه إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذ محمد بدران

٢ – نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ، قام على تحقيقه ونشره والتقديم له بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور طه حسين .

٣ – علم التاريخ لمرنشو ، ترجمه عن الانجليزيه وأضاف إليه بقلمه فصلا قيما عن التاريخ عند العرب .

٤ – صور من التاريخ الإسلامى ، الجزء الأول (الدولة العربية)

٥ – صور من التاريخ الإسلامى ، الجزء الثانى (الدولة العباسية والأندلس)

٦ – مجمل تاريخ الأندلس (مجموعة محاضراته نشرت بعد وفاته فى مجموعة المكتبة التاريخية التى يصدرها الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس) .

وقد قام الأستاذ – رحمه الله – بمراجعة كتاب « الحضارة الإسلامية » بلروفيلوم الذى ترجمه عن الانجليزية الأستاذ عبد العزيز جاويد .

– وله عدد كبير من المقالات التاريخية التى نشرت فى المجلات العلمية المختلفة

مرضه ووفاته :

وفى سنة ١٩٥٢ اشتد به المرض فسافر إلى لندن وبقى فى أحد مستشفياتها ثلاثة أشهر ، ثم عاد ، ولكن العلة اشتدت به فانتقل إلى رحمة الله فى الثالث من أغسطس سنة ١٩٥٦

شارح مجهول من شراح الرسالة القشيرية

بقلم أبو العلا عفيفي

المعروف من شروح « الرسالة » لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري حتى اليوم أربعة : أولها وأشهرها على الإطلاق شرح الشيخ زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩١٠ هـ (١) ، وهو المعروف بإحكام الدلالة على تحرير الرسالة (٢) طبع في بولاق سنة ١٢٩٠ هـ.

وثانيها شرح الشيخ سديد الدين اللخمي الإسكندري ، وهو المعروف « بالدلالة على فوائد الرسالة » ، ولا يزال مخطوطاً بمكتبه مراد ملا تحت رقم ١٢٤١

وثالثها شرح مختصر لمؤلف مجهول الاسم عنوانه « تهذيب الدلالة على تنقيح الرسالة » يوجد مخطوطاً بالمكتبة الظاهرية تحت رقم ٦٩ ، ١٦٧ .

ورابعها شرح آخر لمؤلف مجهول الاسم عنوانه « إرشاد المريدين » يوجد مخطوطاً بمكتبة الهند تحت رقم ١٢٥٩ — ٦٠ ، ورانبور ج ١ ص ٣٢٨

وعندما خطر لي أن أنشر رسالة القشيري ... وهي بلا شك من أهم المصادر التي يستعين بها دارس التصوف الإسلامي ، إن لم تكن أهمها ؛ وأن أضع عليها تعليقات وتحقيقات تكشف أسرارها كما فعلت بكتاب فصوص الحكم لمحيي الدين بن عربي ، أخذت أقرأ شرح الأنصاري مع حاشية العروسي عليه ، وشرح سديد الدين اللخمي ، وكنت أقرأ هذا الأخير في نسخة مصورة عن مخطوطة اسطنبول التي سيأتي وصفها ،

---

(١) قيل سنة ٩٢٥ : راجع النور السافر عن أخبار القرن العاشر للعيدروس .

(٢) راجع شرح الأنصاري مع حاشية العروسي ط بولاق ج ١ ص ١٥

فاسترعى نظرى ما بين الشرحين من شبه قوى ، استحال مع طول القراءة والمقارنة إلى اتحاد يكاد يكون تاما . فاقتنعت فى نهاية المطاف بأن الشرح المنسوب إلى شيخ الإسلام زكريا الأنصارى قد أخذ معظمه أخذاً يكاد يكون حرفياً من شرح سديد الدين ، وأن الشهرة التى تمتع بها الأنصارى أكثر من أربعة قرون كشارح لرسالة القشيرى شهرة زائفة ، وأنه لم يكن له من الفضل فى مؤلفه سوى التلخيص والتجزىء لشرح أوفى وأطول ، هو شرح اللخمى .

وقد استرعى نظرى شيء آخر له مغزاه ، وهو الاسم الذى اختاره الأنصارى لشرحه : فقد أطلق عليه اسم « إحكام الدلالة على تحرير الرسالة » . و « الدلالة » هو الاسم الذى سمى به اللخمى شرحه إذ أطلق عليه اسم « الدلالة على فوائد الرسالة » . فكأن الأنصارى يشير بذلك إلى الصلة بين شرحه وشرح اللخمى من غير أن يعترف بفضله عليه صراحة . بل على العكس كأنه يقول إنه وجد الدلالة غير محكمة فأحكمها — على حسب زعمه ، مع أنه ليس فيما زعم شيء من الإحكام أو ما يقرب منه . اللهم إلا إذا سمينا التلخيص إحكاما !

على أن شرح اللخمى لم يكن مصدر شرح الأنصارى وحده ، بل كان أيضا معتمد شارح آخر هو صاحب « تهذيب الدلالة » ؛ ولكن هذا أكثر صراحة وتواضعا من الشيخ الأنصارى لأنه لم يزد على أنه هذب « الدلالة » واختصرها .

أخذت بعد ذلك أبحث عن ترجمة لسديد الدين اللخمى الشارح الأكبر على الحقيقة لرسالة القشيرى فلم أقف لهذا العالم الجليل المغمور على أثر ، بل لم أظفر بتاريخ ميلاده أو وفاته . ولم يكن الأب دى بوركى بأكثر توفيقا عندما أراد أن يذكر فى مقدمة نشرته لشرح سديد الدين على كتاب « منازل السائرين » للهروى شيئا عن تاريخ حياة المؤلف . بحثت عنه فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، والوافى بالوفيات للصفدى ، ومعجم الأدباء لياقوت ،

والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى ، وحسن المحاضرة للسيوطى ، وشذرات الذهب لابن العماد ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ، ورحلة ابن رشيد — الجزء الباقى منها فى مخطوطة ببلدية الإسكندرية ، وطبقات المناوى المخطوطة ببلدية الإسكندرية وغير ذلك من المظان والمراجع ، فلم أجد إشارة واحدة إليه مع أن كتب الطبقات ومعاجم التراجم تفيض بذكر رجال هم من غير شك دون الشيخ سديد الدين منزلة وخطراً . فلماذا لا تشير هذه المراجع بكلمة واحدة إلى رجل من خيرة العلماء والفقهاء والشراح ؟ هذا سر من الأسرار لا أستطيع له كشفا ! .

أما شرحه على الرسالة فمعروف مشار إليه فى الكتب : ذكره حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون [1] فقال : « الرسالة القشيرية فى التصوف للإمام أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ عن ٨٩ سنة . . . وشرحها القاضى زكريا بن محمد الأنصارى المتوفى سنة ٩١٠ فى مجلد مع المتن سماه إحكام الدلالة على تحرير الرسالة . ونجز إملاء الأصل أوائل سنة ٤٣٨ ، وفرغ من الشرح سنة ٨٩٣ . . . ومن شروحها الدلالة على فوائد الرسالة للشيخ الفقيه سديد الدين أبى محمد عبد المعطى بن محمود بن عبد العلى اللخمى الإسكندرى المتوفى سنة ؟ (ولم يذكر التاريخ) . وكذلك ورد ذكر هذا الشرح فى شرح مرتضى الزبيدى على الإحياء[2] حيث يقول : « وأما التصوف والرقائق فقد طالعت عليه كتباً كثيرة ، وأجلها تعداداً الرسالة للإمام أبى القاسم القشيرى وشرحاها لأبى محمد عبد المعطى بن محمود اللخمى ولشيخ الإسلام زكريا . وذكره بروكلمان فى ملحق كتابه « تاريخ الأدب العربى » [3] .

(١) كشف الظنون حـ ١ ص ٨٨٢

(٢) حـ ١ ص ٤ ، المقدمة .

(٣) الملحق حـ ١ ص ٧٧١

ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستجلى بعض الحقائق عن شخصية الشارح المجهول وعن العصر الذى عاش فيه بين ثنايا الإشارات القليلة الواردة فى شرحيه على كتابى « الرسالة » و« منازل السائرين » . كما نستطيع أن نستدل على بعض صفاته العلمية والخلقية وعلى مكانته فى التصوف بشرحيه على الرسالة بوجه خاص .

أما الزمن الذى عاش فيه ، فالأرجح أنه كان أواخر القرن السادس وأوائل السابع : وذلك للأسباب الآتية :

(أولا) يعنى القشيرى فى مطلع رسالته على الصوفية ترديهم فى مهاوى الهلاك ، وتركهم سيرة السلف الصالح وتشبههم بأهل الورع اسما ورسما لا حقيقة ، فيعقب اللخمى على ذلك بقوله :

« وإذا كان ما وصفه (أى القشيرى) بالمشابهة بهذه الطريقة قد غلب على زمانه ، وبيننا وبينه مائتا عام من السنين ، فكيف بزماننا وقد توالى على القلوب الإهمال لأمر الدين وقل اتباع العلم ، واعتقد من ينسب إلى هذه الطريقة بغير تحقيق ، أن تقليد العلماء والرجوع إلى الشريعة مبنى جملة القواطع عن الطريق : فإنا لله وإنا إليه راجعون » [1] فإذا أضفنا المائتى سنة التى قال إنها فصلت بينه وبين القشيرى على تاريخ وفاة القشيرى وهو سنة ٤٦٥ كما ذكرنا ، رجحنا أن وفاة اللخمى كانت قبل سنة ٦٦٥ أو بعدها بقليل .

(ثانيا) يقول ناسخ « الدلالة » فى آخرها :

« وكمل كتاب الدلالة على فوائد الرسالة بحمد الله تعالى وعونه : نسخ سنة ٧٤٣ من نسخة قوبلت على الشارح رضى الله عنه وعليها خطه (أى النسخة المقابل عليها) وكتب المقابل لها على شارحها فى آخرها : « وكان الفراغ من إملاء هذا الشرح المبارك سنة ٦٣٨ » .

---

[1] مخطوط الدلالة ورقة ١

فإذا كان اللخمي قد انتهى من إملاء « الدلالة » في هذا التاريخ ، كان افتراض تاريخ وفاته حوالي سنة ٦٦٥ افتراضا معقولا ، إذ يكأنه عاش بعد فراغه من تأليفه « الدلالة » حوالي ٢٧ سنة .

(ثالثا) يقول ناسخ[1] شرح اللخمي على كتاب « منازل السائرين » للهروي الأنصاري إنه سمع الشرح وكتبه بإملاء من المؤلف ، وإن المؤلف تناوله جميع تواليفه التي منها شرح كتاب الرسالة ، وشرح كتاب الرعاية[2] وكتاب الحدود [3] ، ثم يقول إنه انتهى من نسخ شرح « منازل السائرين » في الثامن من شعبان سنة ٦٣٨ . وهذه حقيقة أخرى تدعم الفرض الذي ذهبنا إليه . ومن الغريب أن يتفق الانتهاء من إملاء شرح الرسالة وشرح منازل السائرين في سنة واحدة ، وإن كان الانتهاء من شرح الرسالة أسبق بأشهر أو بأيام كما تشير إليه عبارة ناسخ شرح المنازل .

فإذا قدرنا أن اللخمي فرغ من إملاء هذين الشرحين وهو في سن الخمسين ، وأنه عاش بعد ذلك نحوا من عشرين إلى سبع وعشرين سنة ، جاز لنا أن نفرض أن وفاته وقعت ما بين سنة ٦٦٠ وسنة ٦٦٥ وهو ما ذهبنا إليه .

أما شخصية سديد الدين العلمية فنستطيع أن نعرف بعض الشيء عنها من الألقاب التي خلعها عليه ناسخو كتبه . ومن ثنايا الإشارات التي يشير فيها إلى مسائل العلوم الدينية وعلم التصوف بوجه خاص . ومرجعنا في ذلك شرحه الذي بين أيدينا ، فنه نستمد الضوء الذي يمكن إلقاؤه على هذه الشخصية المجهولة .

تذكر ألقابه في صدر شرحه على الرسالة القشيرية على النحو الآتي :

(١) وهو محمد بن عبد الله بن يوسف بن حماد الصنهاجي .

(٢) وأغلب الظن أنها الرعاية للمحاسبي .

(٣) لعله كتاب في الفقه .

« الشيخ الفقيه ، الإمام العارف ، الورع الزاهد ، لسان المتكلمين وشيخ المحبين ، الجامع بين علمي الظاهر والباطن ، العارف بمقام السائر والقاطن ، السيد الأجل ، العلامة سديد الدين ... »[1] وفى صدر شرحه على منازل السائرين للهروى تذكر ألقابه بنفس الألفاظ تقريباً هكذا :

« الشيخ الفقيه ، الإمام العالم ، الورع الزاهد ، لسان المتكلمين وشيخ المحبين ، قدوة السالكين ، الجامع بين علمى الظاهر والباطن ، العارف بمقام السائر والقاطن ، السيد الأجل الأوحد ، العلامة سديد الدين ... »[2]

فناقشا الشرحين ، وقد كان أحدهما ، وهو الصنهاجى ، تلميذاً لسديد الدين ، يتفقان على وصفه بالأوصاف الآتية :

(أولا) أنه كان فقيها . وأغلب الظن أنه كان مالكى المذهب ، وهو المذهب الذى كان غالباً بين أهل المغرب . والظاهر أن سديد الدين كان مغربى المولد ، إسكندرى الإقامة ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من علماء المغرب الذين نزحوا إلى مصر وأقام بعضهم بالإسكندرية .

(ثانياً) أنه كان زاهدا ورعا وصوفيا جمع بين علمى الظاهر والباطن ، وأنه كان له مريدون يقتدون به ويأخذون عنه تعاليم الصوفية بدليل وصفه بأنه كان شيخ المحبين وقدوة السالكين .

(ثالثاً) أنه كان ضليعا فى علم الكلام بدليل وصفه بأنه لسان المتكلمين — وإن كان هذا الوصف قد يراد به أنه لسان المتكلمين فى التصوف . أما ضلاعته فى علم الكلام فيشهد بها شرحه الذى يفيض

(1) مخطوطة الدلاله و ١ — ا

(2) شرح منازل السائرين نشرة الأب دى بوركى القاهرة سنة ١٩٠٤ ص ٤

بالمناقشات الكلامية وينحو فيها نحو المذهب الأشعرى الذى كان سائدا فى بلاد المغرب أيضا .

(رابعاً) أنه لم يكن فقيها وحسب ، ولا متصوفا وحسب ، بل جمع بين الفقه والتصوف على النمط الذى سار عليه معظم كبار الصوفية منذ عهد الغزالى وسار عليه كثير من مشايخ التصوف الذين بعد الغزالى أمثال أبى الحسن الشاذلى ، وأبى العباس المرسى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم . وسيأتى مزيد بيان لهذه الأوصاف عندما نتحدث عن أسلوب اللخمى فى شرح الرسالة .

أما أنه كان عالما بالفقه فظاهر من شرحه ، فإنه لا تعرض مسألة من المسائل التى لها اتصال بالفقه إلا أفاض القول فيها وبيّن أحكام الشرع بإزائها . بل إنه كثيرا ما يقرر رأى الصوفية فى أمر من الأمور ثم يتبعه برأى الفقهاء ، مبيناً الفرق بين الرأيين ، منتصرا فى أغلب الأحيان لمذهب الفقهاء ، قائلا : « هذا هو رأى هؤلاء القوم (يعنى الصوفية) ؛ أما رأينا (يعنى الفقهاء) فكيت وكيت » ، كما فعل فى اعتراضه على أبى حمزة الخراسانى فى إحرامه الدائم[1] واعتراضه على تكحيل أبى بكر الشبلى عينيه بالملح وغير ذلك .

والذى يتصفح شرحه على الرسالة يتبين فى وضوح أن الرجل كان فقيها أولا ، ومتصوفاً ثانياً ، بل لا يتردد فى القول بأنه — على الرغم من علمه بالتصوف وقواعده وتعاليمه — كان قليل الحظ من الذوق الصوفى الخالص . فهو لا يعنى بإبراز المعانى الصوفية والدقائق الروحية التى تتضمنها أقوال مشايخ الصوفية ، بقدر عنايته بإبراز الأحكام الفقهية المرتبة على هذه الأقوال . ولذلك أكثر فى شرحه من ذكر المصطلحات الفقهية مثل المحرمات والمكروهات والواجبات والمندوبات والعبادات والمعاملات وما إلى ذلك من مقولات الفقه ، كأنه لا يرضى

(1) وذلك فى شرحه على ترجمة أبى حمزة الخراسانى : أنظر الرسالة ص ٢٥

بإخضاع التصوف فى جملته إلى الإسلام فى أسسه ومبادئه العامة ، بل يحاول أن يخضع أقوال الصوفية وأفعالهم لموازين الفقه الإسلامى . وهذا مما هبط بأسلوبه فى شرح الرسالة عن المستوى العالى الذى صيغت فيه عبارات القشيرى وأقوال من يروى عنهم من الصوفية . فالفرق عظيم حقا بين فقهيته وروحانية هؤلاء .

وسأسوق هنا مثالا واحداً أوضح به كيف يعالج اللخمى أحياناً مسائل التصوف معالجة فقهية ويغفل جانبها الصوفى أو الروحى .

يذكر القشيرى فى باب الرجاء (١) أن رجلا سكيرا جمع قوماً من ندمائه للشراب ، ودفع إلى غلام له أربعة دراهم يشترى بها فاكهة للمجلس . فمر الغلام بمنصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات . فدفع الغلام الدراهم ودعا منصور له أربع دعوات : الأولى أن يتحرر من العتق ، والثانية أن يخلف الله عليه دراهمه ، والثالثة أن يتوب على سيده ، والرابعة أن يغفر له ولسيده وللقوم . فلما رجع الغلام إلى سيده أخبره بما حدث فأعتق الغلام وأعطاه أربعة آلاف درهم وتاب عن الخمر ورأى فى المنام أن الله غفر له وللقوم .

يعلق اللخمى على هذه القصة بأن يثير مسألة هى فى صميم الفقه : وهى هل للعبد (المملوك) حق التصرف على الإطلاق أم أنه وما ملكت يداه لسيده ؟ مع أن القصة مسوقة فى باب الرجاء للتدليل على عظم كرم الله وسعة جوده وأنه يجازى على الحسنة بعشرة أمثالها . فقد جازى الغلام على إحسانه على الفقير هذا الجزاء الواسع الذى عمه وعم غيره . واللخمى محدث كبير أيضا ، يقتبس من الحديث كلما عنت مناسبة ، ويرويه على وجوهه المختلفة ، ذاكراً المصادر الرئيسية التى يروى عنها كالموطأ وصحيح مسلم وصحيح البخارى والنسائى وغيرها من كتب

(١) الرسالة ص ٦٤

الحديث المعروفة . وهو لا يكتفى بذكر الأحاديث الدائرة على ألسنة الصوفية بل يذكر كثيراً غيرها فى مقام الانتصار لرأى صوفى أو فقهى ، أو الرد على رأى مخالف .

وهنالك ركن ثالث — إلى جانب الفقه والحديث يظهر جانباً من جوانب شخصية اللخمى العلمية — هو علم الكلام الأشعرى الذى نلمسه فى وضوح عندما يفسر به الشارح بعض أقوال الصوفية على أساس كلامى بدلا من أن يشرح المعانى الروحية الدقيقة التى تنطوى عليها هذه الأقوال .

ففى شرحه مثلا لما نسب إلى الحسين بن منصور الحلاج من قوله (فى باب الخوف من الرسالة) [1] « من خاف من شىء سوى الله تعالى أو رجا سواه . أغلق عليه أبواب كل شىء وسلط عليه المخافة ، وحجب قلبه بسبعين حجابا أيسرها الشك » . يفسر « الشك » بأنه عدم معرفة العبد المحجوب أن الخلق بجملتهم مجبّرون مسخرون لما يحدثه الله تعالى مقارناً لقدرهم الحادثة . فإذا نظر فى الأسباب وغفل عن المسبب ، وقل إتقانه الصحيح بانفراد ربه بالأفعال ، حصل فى قلبه تردد اعتبارى عبر عنه بالشك . وهذا الكلام الصريح فى أشعريته قد يكفى فى تفسير شك العبد الحائر المحجوب عن حقيقة الله الفاعل ، ولكنه لا يحيط اللثام عن المعنى الصوفى الدقيق الذى رمى إليه الحلاج .

يقول الحلاج « من خاف من شىء سوى الله ، أو رجا سواه ، أغلق عليه أبواب كل شىء ، وحجب قلبه بسبعين حجاباً أيسرها الشك » . فإذا لاحظنا أنه يريد بما سوى الله المخلوقات ، وأن المخلوقات لا تخلو عن أن تكون من الأشياء المخوفة أو المرجوة ، لزم أن من خافها أو رجاها لذاتها ، ودون نظر إلى خالقها ، أغلق الله فى وجهه باب المعرفة بكل شىء ، وحجبه بأنواع متعددة من الحجب ، أيسرها وأقلها الشك فى حقيقة الوجود . وذلك أن من قعد مع الآثار ولم ير المؤثر فيها ،

[1] الرسالة القشيرية ص ٦١

أو ارتكن إلى الأسباب ولم يدرك المسبب ، انقطع به الطريق فى بيداء الشك ، لعدم وصوله إلى تفسير معقول نهائى لحقيقة الوجود . فالله عند الصوفية هو الحقيقة الوجودية الشاملة ، البادى أثره وصفاته فى كل مخوف -- وهو مظهر صفات الجلال الإلهى - وكل مرجو — وهو مظهر صفات الجمال الإلهى . والصوفى الحق هو الذى لا يخاف ولا يرجو سوى الله ، بل يرى صفات الجلال فى كل مخوف ، وصفات الجمال فى كل مرجو .

ويقول القشيرى فى باب « الرجاء » : « وقيل الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال » [1] ، فيقول اللخمى « وهذا خارج عن الرجاء بالكلية ، فإنه راجع إلى المعرفة » . يقول هذا لأنه لم يلتفت إلى النكتة الصوفية فى قول القائل . والذى أراه أن هذا هو عين الرجاء وجوهره . فإننا إذا فهمنا أن المراد بالجلال صفات القهر الإلهى ، وبالجمال صفات الرحمة والمحبة وما ينطوى تحتهما ، أدركنا أن العبد إذا نظر إلى صفات الجلال بعين صفات الجمال ، فأدرك أن الله الذى وصف نفسه بصفات القهر والغلبة والغضب والانتقام والتعذيب هو بعينه الذى وصف نفسه بالرحمة والود والمحبة والشفقة والعدل : أقول إذا أدرك العبد هذه الحقيقة كان إلى الرجاء أقرب ، بل كانت نظرته هذه هى عين الرجاء : لأنه يرى الله المعذب المنتقم عادلا ، والقاهر الباطش غفورا رحيما . فيرجو ثوابه ولا يخاف عقابه ، ويطمع فى محبته والتقرب منه ولا يخشى انتقامه . وهذا ليس عين الرجاء فحسب ، بل عين التصوف الحق .

واللخمى فوق هذا كله واعظ شديد التحمس فى وعظه : يفيض شرحه بالدفاع عن الإسلام فى ناحيتيه العقيدية والتشريعية ، ويتخذ من هذا الشرح منبراً يعلن من فوقه صيحة الإنكار على الخارجين عن الطريق التى رسمها السلف وأهل السنة ، فى كل صغيرة وكبيرة خرجوا فيها ،

---

[1] الرسالة القشيرية ص ٦٢

كما يتخذ من أقوال الصوفية مناسبات للوعظ فى الأخلاق الإسلامية ، فيقص قصص الأولياء والصالحين ، ويسوق الآيات والأحاديث ، ويستشهد بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسير صحابته والتابعين وغير ذلك مما يلجأ اليه الوعاظ من أساليب التأثير فى الجماهير . وهذا من غير شك من أكبر الأسباب فى تضخم شرحه ، فإننا نجده أحيانا يستسلم لهذا الأسلوب الوعظى ، ويستطرد فيكتب فى شرح فقرة من النص لا تتجاوز ثلاثة أسطر ما يقرب من صفحتين .

ووعظه — كما قلنا — منصبغ بصبغة فقهية أكثر منها صوفية : فهو أشد حرصا على إظهار ما هو حلال وما هو حرام ، وما هو محمود وما هو مذموم من وجهة نظر الشرع — أو من وجهة ظاهر الشريعة على حد تعبير الصوفية — منه على إظهار المغازى الروحية البعيدة التى يعتبرها الصوفية باطن الشريعة وحقيقتها .

ولكن التخمى فوق هذا كله ، ورغم هذا كله ، صوفى من طراز خاص ، هو طراز الفقيه الزاهد الورع الذى لم يقف فقهه حائلا بينه وبين التصوف ورجاله كما وقف فى حال كثيرين من الفقهاء المتزمتين من أمثال ابن حنبل وابن تيميه ، بل رأى فى التصوف حالا وروحانية فأحبه وأعجب بأصحابه ، وعاش عيشة الصوفية بين المريدين والأتباع وصحب كثيرين من المعروفين بالزهد والصلاح فى عصره . ولكنه فى تصوفه سنى قح وفقيه قح كما ذكرنا . وهو بانتهاجه هذا المنهج إنما يسير فى نفس الطريق الذى رسمه القشيرى فى رسالته : أعنى وضع التصوف فى إطار خاص بحيث يتمشى مع تعاليم السلف وأهل السنة ، ولا يدخل فيه شىء من تعطيل المعتزلة وتشبيه المشبهة والحلولية . أما منزلته فى علم التصوف وتاريخه فيشهد بها شرحه الذى بين أيدينا كما يشهد به شرحه على منازل السائرين للهروى [1] (المتوفى سنة ٤٩١) ، فإن

[1] يشير إليه التخمى فى شرحه على الرسالة ويلقبه بشيخ السنة وشيخ الإسلام : شرح الرسالة و ١١٢ب ، ١٣٤ ا

الظاهر من هذين الشرحين أن الرجل كان ملماً إلماماً واسعاً بتعاليم الصوفية وتاريخ رجالهم ، بصيراً بغرر التصوف التي اختار لشروحه منها ثلاثة : هي الرسالة القشيرية ، ومنازل السائرين للهروي ، والرعاية للمحاسبي .

* * *

مخطوطة الدلالة

اعتمدت في هذا المقال على صورة شمسية لمخطوطة اسطنبول رقم ١٢٤١ بمكتبة مراد ملا التي ورد في صفحة عنوانها ما يأتي :

«كتاب الدلالة على فوائد الرسالة المنسوبة إلى الإمام العالم القشيري رحمه الله . اعتنى بشرحها وإيضاح مشكلها وآثارها وفوائدها الشيخ الإمام العالم العارف سديد الدين أبو محمد عبد المعطي بن الشيخ الأجل الأمين أبي الثناء محمود بن عبد المعطي الإسكندري اللخمي قدس الله روحه ونور ضريحه» .

وفي صفحتها الأخيرة

«كمل كتاب الدلالة على فوائد الرسالة بحمد الله وعونه . نسخ في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من نسخة قوبلت على الشارح رضي الله عنه ، وكتب المقابل لها على شارحها في آخرها : وكان الفراغ من إملاء هذا الشرح المبارك في سنة ثمان وثلاثين وستمائة هـ» .

والمخطوطة مكتوبة بخط نسخي نفيس ، وعدد أوراقها ٣٦٩ ورقة ، مسطرتها ٢٥ سطراً ومقياسها ١٨×٢٦ سم .

ويتألف الشرح من جزءين كبيرين ، يقع الجزء الأول في ٢٤٨ ورقة ، يبتدىء بأول الرسالة وينتهي بانتهاء باب «الجوع وترك الشهوة» . ويقع الجزء الثاني في ١٢١ ورقة ، يبتدىء بباب «الأدب» وينتهي بانتهاء الكتاب .

تمد، وبالمخطوطة خروم كثيرة أكبرها وأخطرها فى نهاية الجزء الأول — من أول باب « الخشوع والتواضع » إلى آخر باب « التصوف » ، وأصغرها فى الجزء الثانى وهى خمسة خروم .

(أ) جزء كبير من باب « الأدب » .

(ب) باب « أحكامهم فى السفر » .

(ج) باب « الصحبة » .

(د) الجزء الأخير من باب « التوحيد » .

(هـ) من أول باب « أحوالهم عند الخروج من الدنيا » إلى فصل « ثم هذه الكرامات » .

وقد اطلعت على مخطوطة بدار الكتب المصرية — رقم ٧٠٣ تصوف — وهى لجزء من كتاب الدلالة لسديد الدين اللخمى . وفحصت خطها ومحتوياتها ، فإذا بها تتفق ومخطوطة اسطنبول فى الحجم والخط وتملأ الثغرة الموجودة بالجزء الأول من مخطوطة اسطنبول ملأ محكما : حيث تبتدىء بباب « الخشوع والتواضع » وتنتهى بانتهاء باب « التصوف » فأيقنت أن مخطوطة القاهرة كانت فى وقت من الأوقات ضمن الشرح الكامل إما فى اسطنبول ، وإما فى القاهرة ، ولأمر ما انفصلت عن الأصل . وللمخطوطات أحداث وحظوظ لا تقل فى طرافتها عن أحداث الناس وحظوظهم .

أما الأجزاء الأخرى الساقطة فى الجزء الثانى ، فلم أوفق إلى العثور عليها ، كما لم أوفق إلى العثور على نسخة أخرى كاملة لشرح الدلالة .

مقارنة بين شرحى اللخمى والأنصارى

سبق أن ذكرنا فى مستهل هذا المقال أن شرح الشيخ زكريا الأنصارى على رسالة القشيرى مستمد فى جملة من شرح الشيخ سديد الدين اللخمى . والآن نوفيه هذا القول تفصيلا بعقد مقارنة بين الشرحين ، وبيان وجوه

لاتفاق ووجوه الاختلاف بينهما . أما الاتفاق ، فهو فى صورته العامة اتفاق فى جوهر مادة الشرح : إما عن طريق النقل الحرفى ، وهذا فى أغلب الأحيان ، وإما عن طريق النقل بالمعنى . وأما الاختلاف : فهو فى صورته العامة أيضا ، اختلاف فى طريقة الشرح وتفاصيل المادة . ولنبدأ الآن بذكر طريقة كل من الرجلين فى شرحه .

أما الشخمى فيلخص منهجه فى شرحه فى قوله :

" وقد رأيت — والله المستعان — أن أذكر هذا الكتاب (أى الرسالة) من أول خطبته ، وأتتبعه شيئا فشيئا على حسب ما يفتح الله سبحانه به بفضله وكرامته ، وأن أبين ما احتاج إلى بيان ، وأشرح ما احتاج إلى زيادة بسط بغيره من العرفان . فإذا انتهى الكلام — إن شاء الله — إلى ذكر المقامات من التوبة والزهد وغير ذلك من الأبواب ذكرت حد كل مقام على وجه التحقيق والصواب ، وأجريت عليه جميع أقوال السادة من المشايخ لتعرف مقاصدهم من التحديد أو بيان الثمرات والأسباب " .

فهو يذكر فى شرحه نص الرسالة القشيرية برمته . وهذا مما يزيد فى قيمة كتابه إذ يضع أمام القارىء نصا سليما محققا مأخوذا عن الثقات من رواة التصوف . ثم يقسم هذا النص إلى فقرات طويلة فى أكثر الأحيان ، قصيرة فى أقلها . مبتدئا كل فقرة بقوله : قال الإمام ، ثم يشرع فى الشرح مبتدئاً بقوله « قال الشارح » ، فيقاول الفقرة التى يشرحها تناولا عاماً ، مشيراً إلى الموضوع الأساسى الذى تحتويه . ثم يأخذ فى التفصيل والتدقيق ، فيقسم الفقرة الطويلة إلى أجزاء صغيرة ، شارحاً معنى كل جزء ، معرفاً المصطلحات الواردة فيه ، مدعما ما يقول بمختلف أساليب التدعيم ، اما عن طريق ذكر آيات قرآنية أو أحاديث ، أو أقوال للصوفية أو المتكلمين من الأشاعرة ، وإما بسرد حكايات مروية عن النبى أو الصحابة أو التابعين أو أوائل الزهاد والمتصوفة .

وكثيراً ما يقص بعض الحكايات عن معاصريه الذين عرفوا بالزهد والورع أو الكرامات وخوارق العادات . فاللخمى بذلك يذكر نص الرسالة مرتين ، ويكرر الشرح من زاويتين مختلفتين ، مستطرداً أثناء شرحه ، واقفاً نفسه موقف الواعظ المدافع عن الإسلام بوجه عام والتصوف السنى بوجه خاص . وهذا سر تضخم شرحه الذى يقارب ثلاثة أمثال شرح الأنصارى .

أما منهج الأنصارى فهو المنهج المألوف فى الشرح ، وهو إيراد فقرات قصيرة من المتن محصورة بين حاصرتين ، ثم تفسير هذه الفقرات تفسيرا موجزا . وهو فى هذا يقتبس من شرح اللخمى ما هو ألصق بتوضيح ألفاظ المتن ، ولا يكاد يعدو ذلك إلى غيره مما يستطرد فيه اللخمى .

* * *

وأما مادة الشرحين فتتفق فى الجوهر وتختلف اختلافا كبيراً فى التفاصيل كما قلنا . فالأنصارى يأخذ زبدة شرح اللخمى ، ويغفل التكرار والاستطراد والترادف فى العبارات ونحو ذلك مما يفيض به ذلك الشرح ، ويغفل كذلك الحكايات الكثيرة التى يسوقها اللخمى فى معرض إيضاح المسائل الصوفية أو الفقهية أو الكلامية ، ويتجنب اقتباس الجمل الطويلة ، المملة أحيانا ، التى يستسلم فيها اللخمى للأساليب الخطابية الفضفاضة ، والسجع المبتذل ، محاولا التأثير فى نفوس قارئى كتابه .

فبهذا المعنى نستطيع أن نقول إن شرح الأنصارى تلخيص — وتلخيص جيد — لشرح اللخمى ، وإنه ليس شرحا آخر على الرسالة . غير أننا لا ندعى فى الوقت نفسه أن الشرحين متطابقان تمام التطابق ، فإن الأنصارى قد ينفرد أحيانا بشرح بعض عبارات من النص لم يتعرض اللخمى لشرحها أو لم يوفها حقها من الشرح — وهذا قليل . ولكنهما متطابقان ومتحدان إذا نظرنا إليهما فى جملتهما وجوهرهما .

وتكشف المقارنة بين الشرحين عن فوارق أخرى لها مغزاها : لأنها لا تتصل بفن الشرح مثل الفوارق التي ذكرناها ، بل تتصل بمحاولة الأنصاري إخفاء نقله عن اللخمي ، والظهور بمظهر الشارح الأصيل . فهو لا يكتفي بإغفال ذكر اسم هذا الرجل إغفالا تاماً ، ولا بإغفال اسم شرحه ، بل يسعى عمداً إلى طمس معالم شخصيته ، ويسقط كل شارة تشير إليها ، فمن ذلك :

(أولا) أن اللخمي يذكر طائفة غير قليلة من أسماء معاصريه من رجال الزهد والورع أو رجال الفقه أمثال أبي النور الإسكندري وأبي عبدالله محمد المالقي ، وأبي الفتوح الصقلي ، وعبد الله الميجي ، وأبي الطاهر إسماعيل الإشبيلي ، وأبي بكر الهاوي ، وأبي عبدالله محمد الغزال وغيرهم ، ويستشهد بأقوال لهم أو حكايات رويت عنهم ، فلا يذكر الأنصاري واحداً من هؤلاء ، ولا يتعرض للمناسبات التي من أجلها ذكرت أسماؤهم ، وذلك لانصالهم اتصالا مباشرا بالرجل الذي ينقل عنه .

(ثانيا) إذا كان للخمي رأي خاص في مسألة يعينها ، يذكره الأنصاري ويقول فيه « وقيل كيت وكيت » ويتعمد إغفال اسم القائل . مثال ذلك أنه بعد أن شرح أبيات ابن المعتز الواردة في الرسالة [1] وهي :

وأمطر الكأس ماء من أبارقها ... فأنبت الدر في أرض من الذهب
وسبّح القوم لما أن رأو عجباً ... نورا من الماء في نار من العنب
سلافة ورثتها عاد عن إرم ... كانت ذخيرة كسرى عن أب فأب

يقول الأنصاري : « قيل لا حاجة لتشبيه بما قاله من ذكر الوصف للخمر وكمال وصفها ، وأنها مدخرة أبا عن أب ، بل لو تركه كان

(1) الرسالة ص ٣٥

أولى ، لكنه إنما قصد به لطافة ما وجده من حاله وحسن ما يشاهده وكمال نوره فى محله » (١) .

ولكن القائل لهذه العبارة هو اللخمى الذى يعقب على استشهاد القشيرى بأبيات ابن المعتز فى وصف الخمر بقوله « وما ذكره الإمام رضى الله عنه (أى القشيرى) من هذا التمثيل إنما قصد به لطافةما وجده وكمال ضيائه . وحسن ما شاهده فى كمال لطافته ودقته وحسن ضيائه وكمال نوره فى محله . وشبهه مما لا حاجة له فيه إلى تشبيهه به من ذكر الخمر وكمال وصفها واستحسانها ، وأنها مدخرة أبا عن أب ، فلذلك لطفت وحسنت . وهذا مما لو أمكن أزلته لاستغنائه عنه بغيره وتطهير كتابه منه ومن ذكر أمثاله » (٢) .

(ثالثاً) قد يشير اللخمى إلى نفسه فى معرض مناقشة رأى من الآراء كأن يقول « معناه عندى » أو « وفى رأيى كذا » ويذكر رأيه الذى يعارض به آراء أخرى ، فيحذف الأنصارى كل إشارة تشير إلى شخصية اللخمى ويقرر رأيه كما لو كان رأيه هو : كما قال فى شرح قول السرى السقطى « أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة ... لا تسل من أحد شيئا ، ولا تأخذ من أحد شيئا ، ولا يكن معك شىء تعطى أحداً » (قال) لأن العبد يكتسب بقدر حاجته من وجه طيب فيستغنى به عن السؤال ، ولا يتعلق به أحد من المحتاجين (٣) .

أما اللخمى فيذكر هذا الشرح نفسه ، معبراً عن رأيه هو فى مقابلة آراء أخرى قيلت فى تفسير قول السرى السقطى فيقول :

« فقوله طريقاً قصداً إلى الجنة » معناه عندى — والله أعلم أن العبد يكتسب مقدار الضرورة والحاجة — من غير

(١) شرح الأنصارى جـ٢ ، ص ٥٠
(٢) شرح اللمع : مخطوط ق ١٢١
(٣) شرح الأنصارى : جـ ١ ص ٨٧

فضول – من وجه طيب ، فيستغنى بذلك عن السؤال ، ولا يكون معه فضلة يتعلق بها لأحد من المحتاجين ... وسمعت بعض الناس يتأول هذا على غير ما أشرت إليه الخ الخ . (1)

على هذا النحو يمضي الأنصاري في شرحه : يقتبس ما شاء أن يقتبسه من شرح اللخمي . ويترك ما شاء أن يتركه : لا يعترف له بفضل ولا سبق ، بل يتعمد إخفاء كل شيء يمكن أن يسترشد به في معرفة هذا الشارح المغمور ، أو يستدل به على شرحه .

والآن ، وقد ظهر الحق ، وتبينت قيمة شرح الأنصاري على حقيقتها ، يجب أن نعترف بالفضل لصاحبه لا لمدعيه ، وأن نعتبر الشيخ سديد الدين اللخمي الشارح الأكبر والأصيل لرسالة القشيري ، لا الشيخ زكريا الأنصاري .

(1) شرح المنى : مخطوط و ٢٧ ب